متاعب الحياة

لا تكاد تظفر فى هذه الحياة وذلك العالم بمن رضى بماله وقنع بحاله ، فالإنسان دائم الشكوى والتذمر ، دائب على التأفف والتحسر ، سواء فى ذلك الغنى والمعدم والقوى والضعيف ؛ حتى كأن هذا العالم الرائع والسر الغامض الجامع لا يروق فى عينى إنسان ! ؟

نشكو من زمن نحن فيه ، ونتألم من دهر نحن مصورون ، ونعيب عصرا نحن ممثلوه ، ونحتقر من عالم نحن ساكنوه ، فحققنا قول من قال :

نعيب زماننا والعيب فينا　　　وما لزماننا عيب سوانا

فعجب لك أيها الإنسان ، ترى النار المحرقة يتوهج جمرها ، ويتلظى لهيبها ، فتدس فيها يدك مغتراً بلونها الأرجوانى ووجهها الذهبى ، عما فى أحشائها من أوار وسعير ، ثم تأتينا صاخباً صارخاً مرغياً مزبداً تصب جام لعناتك وصوت شتائمك على النار ! ! ! وما جنت عليك بل جنايتك على نفسك ، فما أغرب هذا التصرف الضال أيها الإنسان وما أسوأه ، به تحصل لك المتاعب والآلام ، فإذا رأيت شقياً مسكيناً ، أو مجرما سجينا ، أو تعساً مهيناً ، أو حائراً شقيا ، وإذا رأيت ثم رأيت بؤساً مقيما ، وبلاء جحيما ، وعذابا وخطبا جسيما ، واستقصيت بروية وتؤدة عن علته الأولى وبذرة وجوده ، رأيت أنها لا تكاد ترجع إلا إلى ارتباك فكرى ، واضطراب عقلى ، كالذى منه ما يسمى « سوء تصرف » أو « اختلال الإدارة » أو « تدبير فاسد » أمور اختلفت فى اللفظ واتحدت فى المعنى والمرمى ، وهذه هى أصل كل شقاء وبلاء فى هذا العالم .

فالسارق الذى زج فى أعماق السجون يقاسى آلام الحبس ، لم يحسن التصرف بمواهبه وأخطأ استعمالها فجلبت لنفسه الضيق والعذاب ، والقاتل الذى يصلى سعير العذاب جزاء فعلته المنكرة التى أوقعه فيها عقل مضطرب وتفكير سيء ، بالمثل ترى كل ما به من غم أو كد إنما جره عليه ما هو فيه من سوء تصرف ونقص فى التفكير ، سبب لغلطة واحدة كانت بذرة الشقاء المقيم .

فمثل الإنسان فى هذه الحياة كمثل لاعب الشطرنج قد تكون غلطة واحدة سبباً فى ضياع الدور ، فالفقير المعدم الذى يتجرع مرارة الإملاق والعوز إنما سعى إلى فقره أو طول أمده بسوء تصرفه وخلل نظامه قديما أو أخيرا ، فما خلق الفقير فقيرا ولا الغنى غنيا إنما الناس سواسية فرقتهم الجهود والأعمال ، والتدابير والأفعال ، فاغتنى هذا بحسن تدبيره ، وأصاب هذا العوز بفساد تفكيره ، وكم من معدم فقير لا يملك شروى نقير قد غدا بحسن

تصرفه ودقة نظامه ، من أصحاب الأموال والقناطير وكم من غني عظيم تعد أمواله بآلاف الآلاف تدهور بسوء تصرفه وبات لا يملك النقير ولا القطمير ؛ وفي ذلك مالا يدع عند المفكر من شك في أن رفاهية المرء وسعادته ترجع دائماً إلى حسن تصرفه ودقة تفكيره وبعد نظره ورويته .

إن لكل إنسان ثروة خاصة به من المواهب التي وزعتها العناية والحقوق والواجبات التي ترعاها سنن الجماعات إلا أن الكثيرين منا يعوزهم استغلال هذه الثروة العظيمة الربح ، وما الذين أثروا وارتقوا إلا من الذين كانوا بمواهبهم عاملين ولحقوقهم راعين وعلى واجباتهم عاقلين ، أولئك الذين حصدوا ثروتهم الشخصية وصمموا على استغلالها صغيرها قبل كبيرها فالوقت الذي هو أكبر رأس مال للإنسان نظموه وقسموه بكل دقة بين الروح والعقل والعواطف والنفس ، وكانت لهم من أنفسهم على أنفسهم رقيبا عنيدا ، يطالبهم بالجد ويحصلونه في يومهم ؛ ومنهم الذين علموا أن المرء في حياته كالسابح في الماء إما أن يكد فيسبح أو يسكت فيهوي ويكون من المغرقين ، إذ ليس كل من خاض الماء سباح ، فهل يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون .

وإليك مثلين لرجلين ابتلى أحدهما بسوء التصرف وفساد التدبير فتراه دائماً في الشقاء والنكد ، وأنعم على الثاني بحسن التصرف وقد كان دون صاحبه فساواه وسبقه وعلاه ، أما الأول فتراه مستخدما دائم الشكوى والأنين مثقلا بالهم والديون ؛ لأنه لم يحسن التصرف فانه أصبح باستخدامه يظن أن المستخدمين وحدهم هم رجال المجتمع ، وأن الفلاح أو الطالب من الصعاليك فأسرف في شرب التبغ والكحوليات ، والجلوس على المقاهي ومحال اللهو حتى أنه أصبح يدخن في الشهر بنصف راتبه ويصرف النصف الثاني في باقي المظاهر « الاجتماعية » في رأيه ومن هنا ولج باب الدين ؛ ولسوء تصرفه ظن في نفسه التفوق فأراد أن يقامر ليستعيض بالربح ما يهلك من مصروفاته الباهظة ، وأصابته خسائر الميسر رغم ارتباك ماليته فزادت الطينة بلة ؛ تلك حاله التي كانت تحرمه النوم والراحة ، فكان يلجأ إلى المغيبات لعلها تذهب بحياته فلا يتألم فتورط فيها بإفراط حتى كادت تقضي عليه ؛ ولما لم يكن له مورد غير وظيفته لجأ إلى النصب ليستعمل فيه مظهره الذي ألفه ، ولسوء حظه ونكد طالعه كان نصيبه في أمور طفيفة ؛ إلا أنها كانت تكشف عن نفسه ستارها ، وتجعله في خشية يترقب ، ومع كل تلك المتاعب تراه يدعي أنه من أرقى البشر وأطهرهم طينة وأعلاهم عقلية.

أما الثانى فأكاد يستخدم حتى وضع أول أساس فى حياة الرجولة فتزوج وكان رب بيت ثم وضع لنفسه أملا يرجو تحقيقه ، فرسم لذلك السبيل ، وشمر له من ساعد الجد ؛ وسواء بلغ ما أراد أو لم يبلغه تراه عاملا له جدا فى طلبه ، وهو وإن كان فى تعب من عمله الذى يعمله إلا أن هذا التعب لا يعد شيئا بجوار ليلة واحدة يقضيها الأول على فراشه الشوكى يتقلب على قتاد الهموم ، وهكذا ترى دائما أن سوء التصرف هو أصل كل علة وشقاء فى هذه الدنيا ، ويأتى عن جهل وقصر نظر وعدم رؤية الأشياء فى حقيقتها وهذا يرجع إلى غرور وانخداع ، أصله عيوب نفسية فى كنه الشخص وذاته لم تزلها التربية أو ينفعها التعليم إلا أن المرء مهما بلغ من درجات الكمال فى التربية والتعليم وسمو الأخلاق لا يسلم من هفوة فى بعض حقائر الأمور قد تؤثر فى حياته وتظل وحدها ما سببا لآلامه ومتاعبه إلا أنها لابد أن تزول

ولو أمعن الإنسان رويته ونظره فى كل أمر من الأمور ليستقرىء عواقبه قبل أن يقدم عليه دون تهاون فى شىء من الأمور التى قد تبدو صغيرة ولربما كانت جسيمة العاقبة توقع قائلها فى تالفة الأتاق ، فلازم التفكير قبل العمل وعمل بروية وتؤدة فإن من تأنى نال ما تمنى ، ولنا من الماضى عظة ، ومن الحاضر عبرة ، والتدبير هو صلاح المعيشة ، ومنار الحياة ، به يسعد المرء أو يشقى

أبو اليزيد ابراهيم مقلد
مدرس بمدرسة مشتهرة الالزامية مركز طوخ

أنين البائس

آه منك أيتها الحياة … قد ملأت القلب هما فبراه
وبقيت الجسم كأسا علقما … تذرى الجسم ولم تكل قواه

* * *

أحرام أن تجودى بالقاء ؟ … وحلال أن تجيبا فيا الدماء
إرحمى منى فؤادا ميتا ! ! … إن منعت الهوى أحياه الرجاء

عبد العزيز سالم
مدرس